أمتى أمة القيم

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

(سوف أظل عربيًا) .

نعم سوف أظل عربيًا ، وليس ذلك مرده إيمان أعمى بانتماء فرض علىّ بحكم الميلاد ، بل إنه نتيجة قناعة متعددة الأبعاد ، هى الخلاصة النهائية لمتابعة تاريخ الإنسانية، ذلك التاريخ الذى ننتمى إليه ، إنه النتيجة التى لا بد أن يصل إليها كل من يستقرئ الأحداث ، التى ارتبط بها الوجود الإنسانى ، فتكون من حصيلتها التراث الحضارى[1] ، والذى يتمركز فى وسطه ذلك التراث الذى قدمه آبائى ، وهو النتيجة المنطقية لذلك الاختيار الذى فرضته العناية الإلهية ، على أرض آبائى وأجدادى فى مواجهة تلك الإنسانية وذلك الوجود الإنسانى .

هل تريد يا بُنَىّ أن تعى معى قصة[2] التاريخ ؟ يرويها لك أحد الثقات ، وقد تجردت نظرته إلا من محور واحد : الصدق والأمانة مع الذات .

إذن فاستمع معى إلى صوت الماضى !!

وُجدت أمتى ، منذ بداية الإنسانية فى تلك البقعة التى تتقابل فيها القارات الثلاث، أى فى قلب العالم ، ولم يكن من قبيل الصُّدف أن يخرج من هذه البقعة صوت الدعوة إلى الهداية . الدين هو صوت الحق ، وهو وحده الذى يرفع الإنسان من مرتبة الوحشية إلى قدسية الملائكة ، وهكذا فى أرض الصحراء ، تحدد مصير الإنسانية ، ومن هذه

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 88 ، فى 14 كانون ثان - فبراير - 1985 ، ص 26 وما بعدها .

(1) « قصة الحضارة » « ول ديورانت - ترجمة زكى نجيب محمود وآخرون » ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الدول العربية، القاهرة ، طبعة عام 1974.

(2) « الصين » حسن محمد جوهر ، دار المعارف ، القاهرة 1966.

الصحراء القاحلة التى لا يعرف أن يعايشها سوى الإله البدوى كانت الدعوات المتتالية ، فخرج صوت الإيمان والتضحية قويًا بنقائه ، ثابتًا بوضوحه ، عميقًا ببساطته .

هذه الإنسانية الجديدة ، وهذه الأرض التى أنتمى إليها ، هى أرض الأديان ، وهى أيضًا أرض العروبة ، إنها ليست فقط أرض الإسلام ، بل منها منبت ديانة التوراة وإليها تعود ديانة المحبة أى الديانة المسيحية ، إن المسيحية ديانة عربية .

لذلك سوف أظل عربيًا .

وإذا كان العربى قد نسى قدسية تعاليم أجداده ، وقعد عن حمل رسالتهم التى حمّلتها لهم السماء ، فإن ذلك ليس خطيئة فرد واحد ، وإنما هى خطيئة أمة بأكملها غالطت نفسها ونسيت حقيقتها ، وسارت فى طريق يبعد بها عن ذاتها الحقيقية ، فالإنسان مجموعة من الأخطاء ، والخطأ وسيلة التعليم والارتقاء .

ونحن العرب ارتكبنا من الأخطاء الكثير ، وهذا حاضرنا ، أليس هو سلسلة متتالية من المآسى التى ليس مردها - فى جانب كبير منها - سوى الوقوع فى الخطأ والإصرار عليه ؟

ولكن ككل حضارة خلاّقة قادت وسعت إلى رفع راية العقل البشرى ، فكذلك كان لا بد وأن تتعثر حضارتنا العربية ؛ لتقع وتسقط فى أكثر من مناسبة واحدة ، وكان لا بد وأن تتعلم لتستعيد سيرتها ، ولتندفع رافعة راية الحق مدعمة قصة الوجود الإنسانى .

لا يستطيع أى باحث أن يفهم حقيقة الوظيفة التاريخية ، التى عهدت بها العناية الإلهية لأمتنا العربية ، إلا إذا ألقى نظرة كلية شاملة على حقيقة التطور العام ، الذى صبغ الإنسانية وموضع تلك الأمة من ذلك التطور ، لو تركنا جانبًا الجزئيات والتفاصيل لاستطعنا أن نؤكد كيف أن قصة الإنسان فى سعيه نحو الخلود تمركزت ونبعت من قوى ثلاث : الصين فى أقصى الشرق ، والإنسان الأوربى فى أقصى الغرب ، وقد توسطتهما الحضارة العربية على قوس ممتد ومتصل من البحر الأصفر على مشارف المحيط الهندى إلى أرض الغال فى أقصى الشمال الغربى ، وبينهما البحر الصحراوى حيث تسود قوة البداوة وصلابة الاتصال المباشر بالطبيعة فى أسمى صورها ، تمركزت جميع عناصر التقدم للوجود الإنسانى والتطور الحضارى نحو الكمال والارتقاء جميع القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عرفتها الإنسانية ، لم تكن سوى مراكز ثلاثة تبلورت حولها نماذج ثلاث مختلفة ومتباينة للفرد وللحضارة وللقيم المثالية ، المجتمع الصينى أولاً حيث الكيان السياسى يمثل الأمة القومية المنغلقة على نفسها التى تأبى إلا الارتفاع بالاكتفاء الذاتى ، وحيث استطاعت الأمة الصينية وعلى متسع زمنى يصل إلى أكثر من أربعين قرنًا أن تظل متماسكة ؛ لأنها لم

تنشأ وتتطور استناداً إلى حق الفتح ، ولكنها نبعت من مفهوم الرقى والسمو الحضارى والأخلاقى[1] ، فى مواجهة تلك الأمة الصينية ، وعلى الطرف الآخر من القوس الممتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، نجد المجتمع الأوربى ، جماعة تحدثت دائمًا عن وحدتها، ومع ذلك لم تستطع فى أى مرحلة من مراحل تاريخها عقب الدولة الرومانية أن تحقق تلك الوحدة السياسية ، وحدتها الحقيقية كانت فى مواجهة أعدائها وفى فلسفة تعاملها مع المجتمعات الأخرى المحيطة بها حيث سادتها مبادئ ثلاثة : القوة والبطش من جانب ، والخديعة والكذب من جانب آخر ، ثم الاستعلاء والتعصب من جانب ثالث ، حتى عندما غزتها الدعوة الدينية السماوية التى جاءت من أرضنا - أرض الأديان - من الصحارى العربية عبر البحر المتوسط ، لم تستطع أن ترفع من مستوى أخلاقياتها ، بل لقد أعادت صياغة تلك الأديان على ضوء أنانيتها الحركية وتعصبها العنصرى ، بل إنها لم تتردد فى فترات معينة أن تلفظ تراثها الدينى وتعلن الرفض المطلق ، والطرد الكلى الكامل ؟!!! لمنزلة الإله من الوجود والتعامل المدنى ، الأوربى . منذ أيامه الأولى إباحى متعصب استفزازى ، يأبى إلا أن يستخدم جميع عناصر البطش الحيوانى ، وقد صبغها بصورة من المثالية المصطنعة ، لن نستطيع أن نفهم أوربى اليوم ، وغربى الغد ، إن لم نعد إلى أجداده الرومان[2] بقسوتهم وعنفهم ، فضلاً عن ذلك التحلل الأخلاقى الذى صبغ التاريخ الأوربى، قصة صارخة لكل ما يقدمه انحدار الإنسان إلى مرتبة الحيوان من خصائص وصفات . وهذه صفحة أخرى تتوالى فصولها أمام أعيننا فى الأرض العربية باسم الصهيونية السياسية ، ليست إلا تعبيراً عن هذه الحقيقة .

بين الأول والثانى وُجد الإنسان العربى : نبله معتدل ، وإيمانه متأصل ، وصلاحيته للمثاليات تلقائية ، وهكذا اختارت العناية الإلهية تلك الأرض لتقدم الدعوة الربانية ، وتزرع القيم والمثاليات السلوكية .

لقد تساءل أكثر من عالم واحد : ما هى خصائص الحضارة الخلاّقة ؟ ما هى تلك المتغيرات الثابتة التى يجب أن نبحث حول توفرها واحترامها علامات الارتفاع والارتقاء للطبيعة الحضارية ، أى لذلك المستوى الذى يصح أن يوصف بالتميز والذى يعطى وحده تلك الحضارة حق القيادة والتوجيه ، وبحيث تستطيع مثل تلك الحضارة أن تنظر إلى

---

(1) « الصين » حسن محمد جوهر ، دار المعارف ، القاهرة 1966.

(2) كتاب « أوربا منذ أقدم العصور ، اليونان » ، تأليف د . جمال عبد الهادى ، د . وفاء محمد رفعت ، مطابع الشعب 1974 ؛ « أوربا منذ أقدم العصور ، دولة - الروم » ، نفس المؤلف ، دار الشروق جدة . ول ديورانت ، مرجع سابق ، أيضًا .

الحضارات الأخرى من ذلك العلو الشاهق ، الذى هو وحده محور العظمة الإنسانية ؟ وثمة محاور خمسة يجب من حصيلتها رؤية ذلك النسيج الذى هو منطق التفوق الحضارى :

أولاً : نظام القيم والمثاليات[1] الذى هو محور الوجود والممارسة .

ثانيًا : عالمية الوظيفة الحضارية .

ثالثًا : القدرة والمقدرة على تطويع الذات الجماعية .

رابعًا : الاستمرارية التى تعلن عن الصلابة والثبات .

خامسًا : إرادة الصراع .

أمتى وحدها استطاعت أن ترتفع بهذه العناصر الخمسة إلى مرتبة التكامل ، ولكنها لم تقتصر على ذلك ، ففى إحدى مراحل تاريخها كانت قادرة على أن تخلق من تلك العناصر إطارًا متجانسًا للتعامل التاريخى ، لم تستطع أن تقدمه أى حضارة أخرى .

لذلك سوف أظل عربيًا ! ولكن كيف حدث ذلك ؟ مهلاً يا بُنَىّ فالحديث طويل .

« أمتى العربية أولاً هى أمة القيم »:

تحت هذا العنوان واصل حامد ربيع حديثه فقال :

« نظام القيم الذى رسبته تقاليدنا السياسية ، لا يزال فى حاجة إلى كشف وتنظيف من تلك الرواسب التى عَلِقَت به ، إن قصة تاريخنا الحقيقية هى قصة دفاعنا عن القيم والمثاليات ، وتارة نجحنا ، وتارة فشلنا ، ولكن المحور الحقيقى لجميع صفحات صراعنا الحقيقى غلّفتها قيم المثالية ، ومثالية القيم ، هذا التاريخ ، الذى أضحى يقدمه أعداؤنا وخصومنا على أنه أحاديث ألف ليلة وليلة ، عامر بالنماذج التى تعلن لا فقط عن إرادة التحدى ، بل وعن الاستعداد للمغامرة بالذات فى سبيل القيم العليا ، التى سادت ذلك المجتمع وتقاليده ، ألم نذكر من قبل قصة « أحمد بن حنبل ؟ » وهل هو الوحيد ؟ وأين

---

(1) « نهضة أمة - كيف نفكر استراتيجيا » اللواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل - طبعة عام 1997 ، **الباب الثانى** : حيث ذكر الكاتب منظومة القيم الإسلامية إلى :

* قيم إسلامية عليا : العلم ، الإيمان ، العمل ، تكريم الله للإنسان ، وحدة الأمة ، العدل ، الشورى .

* وقيم تكميلية مثل : الصدق ، الأمانة ، الوفاء بالعهد ، النظام ، النظافة ، التعاون ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

* وقيم تحسينية: حفظ اللسان ، العفو ، الرحمة ، العزيمة ، الشجاعة ، التسامح ، التواضع ، التكافل الاجتماعى ، الرفق ، الإيثار ، المحبة ، وغيرها كثير .

والجميع يكوّنون منظومة قيم إسلامية مثالية عليها يقوم الفكر الاستراتيجى . وهذا كله هو محور المشروع الحضارى الإسلامى .

« ابن تيمية » أيضًا فى عصور التدهور والانحطاط ؟ فلنقتصر مؤقتًا على أن نعود إلى قصة قيم التعامل الخارجى ، لنكشف رحيق القيم التى أرستها تعاليم أمتنا وقصة الشهامة العربية[1] .

السياسة الدولية لم تعترف بأى نوع من أنواع القيم ، قامت على شريعة الغاب حيث يقف الجنس البشرى وقد تحول إلى مجموعة من الحيوانات[2] الكاسرة ، القوى يبتلع الضعيف ، والقادر يطوع غير القادر لصالحه ، وصاحب السيطرة يوظف الآخر لخدمته ، لا موضع لأى لغة أخرى فى ميدان التعامل بين الشعوب ، قد تتعدد نماذج الوجود الإنسانى ، وقد تختلف تطبيقات التعامل الحضارى ، وقد تتنوع أساليب الممارسة السياسية ، ولكن عندما نقف نتأمل حقيقة وجوهر التعامل بين الدول والشعوب فلا موضع إلا للغة واحدة : منطق الغابة ، ولغة البطش والأنانية ، هكذا كان الإنسان فى تاريخه القديم ، ورغم جميع نداءات المثالية التى ظلت تتحدث فى الداخل بلغة ، وعندما تنتقل إلى الخارج تستخدم لغة أخرى ، الأسطورة المعروفة باسم « حصان طروادة » ليست إلا نموذجًا يتكرر فى جميع صفحات التاريخ القديم .

قيصر عندما دخل مصر زعم فى خطبته المشهورة بأنه إنما أراد أن يعيد إلى المجتمع الفرعونى حرياته المفقودة ، خديعة . . الواحدة تلو الأخرى . وكذب وتعامل من منطلق النسيان لجميع القيم والمثاليات .

قصة « روما » ليست سوى تأليه للقوة الغاشمة والعنف دون حدود ، ودون قواعد فى التعامل مع غير الرومانى . إن من لا يحمل الجنسية الرومانية لمجرد أنه كذلك يحل قتله دون أى حساب أو مساءلة ، العصور الوسطى لم تخرج عن هذه القاعدة ، كان مؤلَّف «الأمير » لمكيافيللى هو الكتاب المقدس ، الذى يحمله تحت إبطه كل أمير أوربى ، وكم تساءل أكثر من مفكر أوربى خلال القرن الخامس عشر : حتى الحيوانات تخضع فى صراعها لحد أدنى من قواعد التعامل ، فهلا استطاع الإنسان أن يرتفع عن تلك البربرية التى تسيطر

(1) « ابن تيمية » محمد يوسف موسى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة 1962.

(2) مثال ذلك إبادة وتشريد ستين مليونًا من الهنود الحمر على أيدى المهاجرين الأوربيين إلى القارة الجديدة (أمريكا) وقتل وتهجير مائة مليون من أبناء أفريقيا على أيدى أبناء أوربا ، إبادة وتشريد وانتهاك أعراض أربعة وعشرين مليونًا من مسلمى تركستان الشرقية والغربية والقوقاز على يد أبناء روسيا النصرانية الأرثوذكسية والشيوعية وما فعله الصرب الأرثوذكس بمسلمى البوسنة والهرسك وكوسوفا ؛ كتاب « الأساطير المؤسسة للدولة اليهودية» جارودى ؛ حاضر العالم الإسلامى ، أفريقيا، الأستاذ على لبن وآخرون .

على جميع مسالك الصراع التصفوى بين الشعوب الأوربية ؟

ولماذا نذهب بعيداً ؟ تعالوا معى نقرأ تاريخ باباوات روما ، حاملى مشعل القيم الكاثوليكية. وكم هى عامرة قصصًا عامرة بأقذر الممارسات ، إن قصة « سيزار بورجيا » كافية لتقشعر من هولها الأبدان ، فإذا وصلنا إلى حضارة عصر النهضة إذ بلغة القوة تتحول إلى منطق العنصرية : إن حق الشعب المختار أن يحكم ويوجه ويقود ويستأثر بالشعوب الأخرى ، والشعب المختار هو الشعب الأبيض ، وليس لأحد حق فى الألوهية السياسية سوى ذلك الرجل الذى يحمل ملامح العنصر الآرى ، مأساة المجتمع الأوربى ، هى قصة العنصرية التى لا تزال تتوالى فصولها أمام أعيننا ، وهل تستطيع الحضارة الغربية أن ترفع عن ضميرها أربع مآس لم يَعرف لها مثيلاً التاريخ الإنسانى : استئصال الهنود الحمر فى القارة الجديدة[1] ، ثم استئصال الأهالى الأصليين فى استراليا ، واستئصال اليهود فى القارة الأوربية ، ثم استئصال الفلسطينيين من أرض آبائهم ؟[1] .

فى مواجهة هذا المنطلق العنصرى المتخلف تقف أمتى شامخة متميزة .

لماذا ؟

سؤال يجب أن نجيب عليه حتى لا نوصف بالتحيز والاختلاق .

نظام القيم السياسية يدور حول أربعة أبواب : قيم التعامل الجماعى بين الشعوب ، ثم قيم التعامل مع الفرد الأجنبى فى داخل المجتمع السياسى ، ويأتى عقب ذلك فصل خاص بقيم التعامل الداخلى أى تلك المثاليات التى تحكم علاقة الفرد المواطن بالسلطة ، أى الحاكم بالمحكوم ، ثم أخيراً الفلسفة العامة للوجود الإنسانى ، أى نظرة المجتمع وعلاقته بالعالم الذى يحيط به وإليه ينتمى .

الباب الأول : يدور حول خصائص القيم التى تتحكم فى علاقة المجتمع بالمجتمعات الأخرى ، سواء تلك التى تتعامل معه تعاملاً سلميًا أم لا تتعامل معه كذلك ، سواء فى حالة الوفاق أو فى حالة الحرب .

الباب الثانى : ويرتبط بالأجنبى عندما يقدر له التواجد فى المجتمع القومى ، هل يفقد آدميته أم له حد أدنى من الحقوق أم له حق المساواة مع المواطن ، ولو فى نطاق معين من

(1-1) الأساطير المؤسسة السياسية الإسرائيلية ، جارودى ، دار الغد العربى القاهرة ؛ قراءة فى فكر علماء الإستراتيجية ، جمال عبد الهادى وآخرون ، الكتاب الأول ، الطريق إلى البيت المقدس ، د . جمال عبد الهادى . ج2 ، ج 3 ، دار الوفاء ، المنصورة ، حول حضارة الاستئصال مقارنة بحضارة الإسلام ، انظر : « الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية » توفيق يوسف الراعى المنصورة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ط١ عام 1988.

الامتيازات والحصانات ؟

الباب الثالث : وهو الذى يدور حول العلاقات المعتادة واليومية بين الحاكم والمحكوم .

ثم يأتى **الباب الأخير** : لينقلنا إلى نطاق الفلسفة العامة للوظيفة الحضارية .

لن نستطيع أن نفهم العظمة الحقيقية لحضارتنا العربية ، ولسموها على جميع الحضارات الأخرى ، إلا إذا تناولنا جميع هذه الأبواب كل على حدة ، فلنتذكر الكرم العربى ، والشهامة العربية ، والفروسية العربية ، وقصص صلاح الدين خلال الحرب الصليبية على سبيل المثال[1] .

ولكن لنقف مؤقتًا إزاء أروع صفحات تلك القيم ، وهى قيم التعامل الدولى أى قيم التعامل مع الشعوب الأخرى .

لا نستطيع أن نستثنى من قواعد الغابة فى التعامل الدولى فى جميع مراحل الوجود الإنسانى ؛ وحتى هذه اللحظة فى التاريخ الإنسانى سوى المجتمع العربى التقليدى .

لقد آمنت أمتى بقواعد ثابتة ، جعلت منها دستور الممارسة السياسية مع الشعوب الأخرى، وأطلقتها كقواعد للممارسة الدولية، ولم تقبل لها استثناء، ولو على حساب نفسها .

هذه القواعد يمكن تلخيصها **بشرعية القتال**[2] **دفاعًا عن مبادئها ، مع احترام آدمية الإنسان فى السلم والحرب وفى كل الظروف ، وعدم السماح للنزعة العنصرية بأن تحكم علاقة العربى بغيره ، وحتى فى ساحة القتال ، فلا يجوز أن يكون الصدام المسلح مبررًا لإهدار آدمية الآخرين ، نفس القواعد التى تطبق على الإنسان العربى يتمتع بها غيره ، ويتحمل آثارها غيره ، ولا يجوز -والحالة هذه- الاعتداء على المرأة أو الصبى أو العجوز**[3]**،**

---

(1) «التسامح فى الإسلام» محمد أحمد حسونة، ومحمد خليفة التونسى دار الكتاب العربى القاهرة 1952.

(2) آيات الجهاد فى القرآن الكريم ، د . كامل الدسوقى ، دار البيان ، الكويت ، 1392 هـ / 1972 م ؛ الجهاد فى سبيل الله ، أبو الأعلى المودودى ، ط ٢ ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م ؛ الجهاد فى الإسلام ، محمد شديد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ؛ الجهاد ميادينه وأساليبه ، د . محمد نعيم ياسين ، مكتبة الزهراء - عابدين - القاهرة ، ١٩٩٠ ، تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، سعيد عبد العظيم ، دار الإيمان الاسكندرية ، ١٩٩٠ .

(3) نعم . . . هذا ما نهى الإسلام عنه ويظهر هذا الأمر واضحًا فى وصية الرسول ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم أثناء خروجهم للغزو : « **لا تقتلوا شيخًا فانيًا ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا حيوانًا** » .

وهذه التعاليم عكس ما ورد فى التوراة عن الحرب فتقول : [عندما تقترب من مدينة لكى تحاربها. . . . فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . . . . وأما مدينة هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تبق منه نسمة ما] سفر التثنية 10/20.

ولا يجوز تخريب أموال الغير ؛ لأن الإنسان حيثما وجد له آدميته ، ومن الواجب احترامها ، لا سيما وأن الإنسان هو خليفة الله فكيف يسمح لنفسه خليفة الرب ألا يحترم ما خلقه ذلك الرب ؟[1] .

هذه القواعد التى مثلت نسيج التعامل فى تقاليدنا العربية سواء إبان نشر الدعوة الإسلامية ، أو فى العلاقات مع الدول والأمم الأخرى . لا تزال رغم جميع التطورات التى عاشتها الإنسانية الأخرى ، تبحث عن تأصيل مماثل لها دون أن توفق أية حضارة أخرى إلى ذلك .

لذلك سوف أظل عربيًا .

لقد ظلت الإنسانية عقب تلك القواعد والتعاليم تصارع خلال ثلاثة عشر قرنًا ، ومع ذلك لم تستطع حتى اليوم أن ترقى إليها ، فهل تفهم لماذا إيمانى وقناعتى بسمو الحضارة التى أنتمى إليها ؟ وهذا ليس سوى نقطة فى بداية سوف ترى معى كيف تصير بحرًا يفيض ليثبت لك أن الإنسانية لم تستطع حتى اليوم أن تقترب ولو جزئيًا من حقيقة الحضارة التى أنتمى إليها .

ترى هل تفهم يا بُنىّ لماذا سوف أظل أصرخ بأعلى صوتى عن قناعة وثقة :
سوف أظل عربيًا !

(1) انظر كتاب « الجهاد فى الإسلام » ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1973.
انظر ايضًا « الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى » فايد حماد عاشور ، دار الاعتصام، القاهرة . 1983 .